آراء وافكار

« الشام » في معلمة الاسلام

كتب الاستاذ الاب لامنس (Lammens) في آخر جزء صدر من معلمة الاسلام (Encyclopédie de l, Islam) مبحثاً في «الشام» وقعت له فيه هنات لا يسمح الاغضاء عنها ، فمنها (ص٣٠٢) في فتح الشام ان الأعراب بعدة الردة وقيام ابي بكر الصديق تألفوا عصابات عملاً باشارة الرسول او بغية غزو بلاد خلت من حماتها فرحلوا الى الشام وقابلهم مرجيوس قائد قيسارية للروم فغلبوه في داثن وكان في قلة من المتطوعة ثم ذكر ان خالد بن الوليد خف من العراق وهزم الروم في أجنادين بين ايليا وبيت جبرين ثم انهزم العرب في فحل الخ . ومعنى هذا ان مبدأ الفتح كان بعصابات على عهد ابي بكر فقط ، مع ان جميع كتب التاريخ مجمعة على ان صاحب الرسالة (عليه الصلاة والسلام) انفذ في حياته الشريفة خمس غزوات الى الشام وهي غزوة دومة الجندل (في اول تخوم الشام) وغزوة مؤتة في ارض الشام وغزوة ذات السلاسل وغزوة تبوك وغزوة آبل الزيت . وفي عهد الخليفة الاول أرسلت الجيوش تباعاً دراكاً بقيادة جلة من الصحابة ومنهم خالد بن الوليد وكانت وقعة اليرموك هي الوقعة الفاصلة ، ولم يكن جيش العرب اقل من ٣٥ الفاً وجيش الروم نحو ٢٠٠ الف أنجد مرات . وأراد الاب لامنس ان يصغر من شأن هذا الفتح فنسبه الى عصابات مع انه كانت حربهم حرباً منظمة ولم يترك الروم في قوس المقاومة منزعاً . وما كان يقصد من الفتح الغزو والغنائم فقط كما قال .

وقال (ص٣٠٤) ان الحركة العقلية كانت في العهد الأموي قاصرة على الشعر وفي رأسها الشاعر التغلبي الأخطل النصراني والخليفتان يزيد الاول والوليد الثاني . مع ان شعراء الأمويين عدوا بالعشرات . والحقيقة ان الحركة العقلية لم تكن أدبية فقط فان خالد بن يزيد الأموي في دمشق امر بان تترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء وجلب فلاسفة من مصر والروم وأغدق عليهم الاموال لذلك . وأنشأ اول خزانة للكتب في دمشق بل في بلاد الاسلام . ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأمر ان يترجم كتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(اهرن بن اعين) . فالحركة اذاً لم تكن أدبية صرفة بل علمية فنية ولم يكن الأخطل النصراني والخليفتان الأمويان مستأثرين وحدهم بهذا الفضل (راجع كتابنا خطط الشام ج ٤ ص ١٨ — ٢٤) .

وذكر (ص٣٠٤) ان القدرية اخذوا مبادئهم الفلسفية من مواطنيهم النصارى وليس لهذا القول سند يركن اليه وكان ادعاه في كتابه مختصر تاريخ سورية فرددناه عليه (مجلة المجمع م ٢ ص ٢٧١ و٣٣٧) . وقال ايضاً ان زراعة الشام ظلت زاهرة رغم إرهاق السكان بالضرائب مع ان الروم من اهل البلاد كما ثبت في التاريخ كانوا راضين عن هذا الحكم العربي اكثر من حكم الروم وتبين لهم الفرق بين الإدارتين العربية والرومية .

وزعم ان نصارى لبنان حاولوا التخلص من مظالم عمال خلفاء بغداد فلم يفلحوا . مع ان نصوص التاريخ صريحة في ان الذين قاموا من اهل لبنان لم يكن قيامهم لمقاومة الظلم بل كانوا عمالاً لصاحب الروم وما كان لبني العباس ان يغضوا الطرف عمن يعمل لاعدائهم ويكيد لهم في ملكهم .

وقال (ص ٣٠٥) انه كان في دمشق معمل للورق في القرن العاشر للميلاد مع ان معامل الورق كانت في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة وحلب ومنبج وبدأت منذ اواخر القرن الثامن . وتدل القرائن على ان الوراقة كانت معروفة في الشام في اوائل الاسلام (خطط الشام ج ٤ ص ٢٤٢) .

وقال (ص٣٠٦) ان الصليبيين فتحوا طرابلس في جملة ما فتحوه من الساحل لاول انهيالهم على البلاد مع انه ثبت في التاريخ ان ابن عمار صاحب طرابلس وقاضيها هادنهم على ان يجتازوا من وراء مدينته وبقيت طرابلس بيد ابن عمار بضع سنين اوائل دخول الصليبيين . فكانت طرابلس آخر ما اخذه الصليبيون من مدن الساحل . ومما قاله ان مدن الداخل قبلت ان تدفع الجزية للصليبيين وكان ما ادوه اموالاً تصالحوا عليها حتى لاتخرب البلاد . ودمشق لم نذكر انها أدت شيئاً من هذا القبيل . وغلا في تقدير عدد الاجانب في دولة دمشق اليوم فأوصلهم الى ٤٩٠٠٠ في حين جعل عدد الاجانب في دولة حلب ٣٠٠٠ ولعله يريد ان يحذف صفرين فيكون عدد الاجانب في دولة دمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤٩٠ . وذكر ان الشام اليوم تناخم مملكة العراق من الغرب والصحيح من الشرق . وادعى ان العباسيين ظلوا على عدائهم للعلماء من الشاميين ولذلك كان عملهم من العوامل التي حالت دون تقدم الافكار على ان العباسيين لم يضطهدوا من الشاميين او من عقلائهم وعلمائهم الا من جاهروهم في محبة الأمويين ومن عداهم نزلوا بغداد على الرحب والسعة وشاركوا في الحركة العلمية ومنهم بضعة من التراجمة والعلماء النصارى ، على ماذكر ذلك القفطي وابن ابي أصيبعة ، ولكن كان الاولى ان يقال ان الحركة العلمية في الشام انتقلت الى دار السلام وذلك بطبيعة الملك لان الخلفاء واهل الدولة كانوا في العراق وبعد الدور الثاني للعباسيين اخذت الشام تستقل عن بني العباس الا قليلاً .

وكان عليه ان يشير ولو بكلمة الى المدارس التي أنشئت في أمهات مدن الشام منذ القرن الخامس الى التاسع للهجرة ليدل بها على مدنية القوم كما حرص على الاعجاب بالبيع التي أقامها الصليبيون مثل بعبة جبيل وبعبة طرطوس وبعبة بيروت التي هي اليوم الجامع الكبير . فان هذه المدارس هي التي نشأ منها للشام رجال الشريعة والادب والتاريخ والجغرافيا والفلك وناهيك بانه كان في دمشق فقط اربع مدارس للطب وواحدة للهندسة .

وكما قال ان الزراعة انحطت بدخول العرب الى الشام زعم ايضاً ان التجارة لم تقم لها قائمة منذ عهد يوستنيانوس الرومي حتى جاءت مراكب البنادقة والجنويين والبيزيين في الحروب الصليبية وفاته ذكر اساطيل معاوية بن ابي سفيان وأخلافه ثم الطولونيين والفاطميين التي كانت مدة اربعة قرون تنقل التجارة في اكثر موانيء البحر الشامي كما تغزو اعداءها من الروم وجنوبي ايطاليا .

ولم يتعرض لذكر بعض المهندسين والفلكيين والرياضيين الذين قاموا في الشام على عهد الاسلام . بل ذكر بعض المؤرخين والجغرافيين والادباء واثنين من حملة الشريعة فقط . اما في العهد الاخير فلم يدوّن سوى اسماء اليازجيين ناصيف وابراهيم ، وبطرس البستاني . وهذا كما ترى غمط لحق عشرات من الادباء والعلماء من المسلمين والمسيحيين الذين كانوا مادة المدنية الجديدة في الشام منذ أواسط القرن الماضي الى اليوم وهو ولا شك يعرفهم لكن يرقن عليهم لمقصد هو أعلم به .

هكذا يكتب الاب البسوعي تاريخ الشام في هذا العصر وليته يقتدي بمن يكتبون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذه المعلة على بلاد الشام ايضاً أمثال سو برنهايم ممن يتجردون عن الغرض و يبعدون عن الاهواء المذهبية و ينصفون كل انسان و كل مجتمع ودولة . ومن الغريب ان هذا المؤرخ اذا نُبه الى خطإه لاينافش في الموضوع بل يقول ان ناقديه يحاولون ان تكتب لهم شهرة كشهرته ، وهم مغمورون خاملون جاهلون و يكيل له بكيل السخرية والمطاعن، بمايخرج عن حد النقد الادبي الذي هو حياة العلم والآداب ، فهو ابداً شعوبي من الطراز الاول يغمط حق العرب والمسلمين من خدمة الحضارة ، وسلاحه السفسطة يضعف كل حقيقة اذا جاءت على ايدي العرب والمسلمين ، و يصور التمام في ماضيها وحاضرها في بشاعة وان وجدت فيها الحسنات فهي لغير الفاتحين وأخلافهم .

وبينا نكتب هذه السطور قرأنا في رسالة « آراء غريبة في مسائل شرقية » تعريب الاستاذ عمر فاخوري جملة للمسيو دينه وسليمان بن ابراهيم في نقد كتابات الاب لامنس وتحامله على الاسلام فمما قالاه : ان الاب لامنس في علم المشرقيات كبطرس الناسك في الحروب الصليبية وقد جهز بهمة لا تعرف الكلل صليبية دعية في العلم طمعاً بصرع الاسلام صرعة لا قيام منها . وقالا فيه ايضاً : كلما ذكرت الاحاديث والاخبار خلة حسنة ممدوحة في محمد وصحابته رأيته يؤكد انهم كانوا مصابين بالعيوب المناقضة لتلك الخلال و بكلمة موجزة نقول ان طريقة الاب لامنس تقدم على « عكس » المنقول عكساً مطرداً مقصوداً . وقالا في الحاشية : لايعدل الاب لامنس عن هذا الاسلوب الا حينما يجد أسلوباً أشد مكراً في سوق الخبر الى معاني السوء اه سامحه الله .

م . ك